(٩)

تصحيحات شرعية

واحة روحية

العدد (٣٣) رمضان (١٣٨٧هـ) ديسمبر (١٩٦٧م)

في هذا العصر اختفت تقريبًا المذاهب الداعية إلى الانطواء على النفس والعزلة عن المجتمع، وربما بقيت في ميدان الرهبانية، أو في مجال النزعات الخاصة بعض آثار الاستيحاش من الخلق، والابتئاس بالخلطة، لكن هذه البقايا لا تؤثر في قيمة الاتجاه الإنساني العام إلى التعاون والاختلاط، وبناء السلوك البشري على الإيلاف والاستئناس.

ونحن راضون عن هذا الاتجاه الجماعي الودود، فإن الانكماش عن الحياة العامة ليس شارة صلاح، ولا طريق إصلاح، بل قد يكون دليل ضعف وانهزام، أو نشدانا للراحة مع ترك الدنيا تموج بما تموج به.

ورسل الله لم يتركوا الجماعات البشرية تسير حبلها على غاربها، ويقبعوا في صوامع قصية يتأملون ويتألمون، كلا.. لقد عاركوا الشر وعالجوا أسبابه، وتحملوا بجلادة ما تركه هذا العراك في أنفسهم وأهليهم من أحزان وكروب.

ولم يكن هناك بد من هذا المسلك، فإن الأفراد يعيشون غالبًا وفق التقاليد والعادات الشائعة في الأمة، ويبنون مكانتهم ووجاهتهم على الانسجام معها.

وهذه التقاليد والعادات كثيرًا ما تغلب فطرة الله في الأنفس، وتعمي عن رؤية آياته في الآفاق، فتنشأ الأجيال المقبلة بعيدة عن الصلاح والاستقامة، بحكم منابتها التي خرجت منها.

ومن ثم فلا طريق لنصرة الحق، وغلبة الخير إلا بالجهاد المضني لجعل عادة حسنة تغلب عادة رديئة، وتقليدًا صالحًا يغلب تقليدًا فاسدًا، وتيارًا نقيًا يغلب تيارًا ملوثًا.. وتلك هي الغاية من جهاد الدعوة.

ولعل الثواب الأعظم المرصد لخطوات المجاهدين يرجع إلى عظم آثارهم في الحياة، وامتداد النفع بكفاحهم المادي والأدبي.

ومن ثم فإن العباد العاكفين على طاعة الله في قمة جبل، أو جوف غابة، يطالعون من بعد غبار المعركة بين الحق والباطل، أو ييأسون من نتائجها، ويستريحون من متاعبها.. هؤلاء في الحقيقة ناس واهنو العزم والإيمان، هابطو المكانة في الدنيا والآخرة.

بل ربما لقي بعضهم الله بإثم الفار من الزحف، أو القاعد وراء المجاهدين.. إن الإسلام يمد أبناءه بفيض من اليقين يتجاوز أشخاصهم إلى ما حولها، فهم يتركون طابعهم كله أو بعضه على بيئتهم.

وإذا استعصت مواطن الشر على هذا الإيحاء الكريم، فهي أعجز من أن تبسط ظلمتها على القلوب المشرقة، وهي أعجز من أن تكرهها على الفرار والتواري عن الأعين.

وسيبقى أهل التقى في جنح الليل السائد منارات قائمة تومض بالحق فتهدي وتنجي.

ومع هذه المعاني التي شرحناها، نقرر أن المرء تمر به فترات يحتاج فيها إلى أن يخلو بنفسه، وينأى عن الناس بجانبه، ويراجع في صمت العزلة ما له وما عليه، ما أحسن وما أساء، وما يفعل وما يترك.

إن ضجيج المجتمعات أحيانًا يفقد الإنسان وعيه أو يكاد.

وأظن أنه قد ثبت علميًا أن مستوى الذكاء في زحام الجماهير يهبط، وأن التجمعات المنطلقة يحكمها رأي عام يشبه متوسط المحصول.

ومتوسط المحصول يتلاشى فيه الإنتاج العالي في جوار الإنتاج الرديء، إذ تذهب زيادة هذا في نقص ذاك.

ومن ثم وجدنا كثيرًا من الناس ينشدون أن يخلوا بأنفسهم، ليستعيدوا في خلوتهم حدة بصيرتهم، وتألق أذهانهم.

وما يستغني أولو النهى عن هذه الساعات الغالية، لا ليستجموا فيها، بل لتثوب إليهم مواهبهم، وترجع لهم خصائصهم ثم يواجهوا الدنيا بحقيقتهم الكاملة.

وفي الجاهلية الأولى رغب النبي ﷺ في العزلة، فكان يهجر أم القرى إلى غار منفرد في جبل أشم، ينقطع دونه لغو الناس وإثمهم.

وكان النبي الكريم يحاول في سكينة الغار أن يقترب من الحقيقة التي ضل عنها عالم غريق في الشرك والعصيان.

وقد طلع عليه فجر الوحي في أيام تحنثه، واستراحة فؤاده الشريف إلى حياة التأمل العميق، فلما حمل أعباء الرسالة، وشرع يخلص العالم من قيود الخرافة وآصار البغي، كان يستعين على جهاد الجماهير الشكسة النافرة بالساعات التي يخلو فيها إلى ربه، ويبصر فيها نفسه، وما يعمل وما يلقى.

وقد استحب لأصحابه - رضوان الله عليهم- أن ينسحبوا بين الحين والحين من مشاغل العيش، ومشكلات الأهل والولد، وأن يفروا إلى الله في بيته، ويعكفوا على ذكره وعبادته.. والاعتكاف في المسجد اطراح موقوت لشؤون الدنيا، وإقبال مضاعف على شؤون الآخرة، وإنابة جادة إلى الله، يشترك فيها الشعور واللسان، والظاهر والباطن.

وإذا كانت أيام رمضان قد اجتذبت الرسول ﷺ إلى غار حراء، راغبًا راهبًا ذاكرًا قانتًا، فإن هذه الأيام نفسها قد علّقت قلبه- بعد الوحي- بالمسجد، يأوي إليه، ويتحنث فيه هو وصحبه الأبرار.

وقد شهد المسجد النبوي بالمدينة المنورة ليالي وضيئة، لأولئك العابدين المنقطعين إلى الله، الآملين فيه، المعتزين به.

فلنطالع هذه الصورة الطريفة من مرويات البخاري ومسلم، قال أبوسعيد

الخدري: اعتكف رسول الله ﷺ في العشر من رمضان واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال له: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط، فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: الذي تطلب أمامك.

ثم قام النبي ﷺ خطيبًا صبيحة عشرين من رمضان فقال: من كان اعتكف معي فليرجع، فإني رأيت ليلة القدر، إني أنسيتها، وإنها في العشر الأواخر في وتر، وإني رأيت كأني أسجد في طين وماء.

قال أبوسعيد: وكان سقف المسجد جريدًا من النخل، وما نرى في السماء شيئًا، فجاءت قزعة فمطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهته، تصديق رؤياه[1].

أي ليلة سمحة مباركة كانت هذه الليلة التي اتصل فيها الذكر والتسبيح، وصاحب الرسالة ورجاله الأقربون عكوف على الطاعة والتلاوة يركعون ويسجدون، حتى جاءت سحابة تصب على أكناف المسجد ما شاء الله من رحمته، والمتهجدون دائبون على نسكهم، لا يلفتهم عن صلاتهم المطر النازل، فإذا سجد النبي ﷺ رفع وجهه الشريف وبه آثار من الماء والطين؟

لقد كانت هذه ليلة القدر، وهي كما قال الله ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (القدر: ٣).

رب عمر طال بالرفعة لا بالسنوات..

وقطيرات زمان ملأت كأس حياة..

وقد مضت السنة باستحباب اعتكاف المؤمنين في العشر الأواخر من رمضان، وكان النبي ﷺ إذا دخل الثلث الأخير شد مئزره، وأحيا ليله وأيقظ أهله.

وربما قال قائل: إن الاعتكاف على هذا النحو ليس عزلة، إنه عبادة

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٨٠).

جماعية، يؤديها المؤمن مع غيره، وذاك شيء غير العزلة التي حدثتنا عنها آنفًا!

ونجيب بأن الاعتكاف عبادة قوامها العزلة، فإن الإنسان عندما ينوي الاعتكاف يتفرغ لطاعة الله، والإقبال عليه، ويدع زوجته وشغله ولهوه.

وقد جعل الإسلام هذه العزلة في إطار المسجد، فلم يسمح بانقطاع في غار أو غابة، وذلك حتى لا تهي صلة المسلم بالجماعة.

والمسجد بقعة توحي بالعبادة والتبتل، وعلى العاكف أن يلم شمل نفسه، ويديم ذكر ربه، ولا يأذن لقطاع الطريق أو لصوص الأوقات أن يغلبوه على أمره.

إن المساجد قطع من هذه الأرض مساوية لها في المعدن، ولكنها ارتفعت قدرًا عند الله وعند الناس برفعة الغاية التي بنيت من أجلها، والعباد الذين يصطفون فوقها ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ (**النور**: ٣٦، ٣٧).

ورأيي أن الاعتكاف ليست له مدة معينة، وأن الصوم حسن فيه إذا طال أمده.

وفترات الاعتكاف القصيرة فرصة متاحة لكل مسلم يريد بين الفينة والفينة أن ينعطف إلى ربه، لكن الفترات القصار تشبه التمارين الرياضية المحدودة من سباحة وجري، لها بلا ريب أثرها في الصحة العامة، غير أنها لا تدل على بطولة وتفوق.

والاعتكاف الذي يستغرق أيامًا لا يطيقه إلا قوم لهم مع الله معاملة، ولهم به إلف، وهل يتفاوت أهل الإيمان والعبادة إلا في ذلك المضمار؟

إن ما يسأم منه البعض قد يستلذه آخرون.

تدبر هذا الحديث عن ربيعة بن كعب -رضي الله عنه- قال: كنت أخدم النبي ﷺ نهاري فإذا كان الليل أويت إلى باب رسول الله فبت عنده، فلا أزال أسمعه يقول «سبحان الله، سبحان الله، سبحان ربي» حتى أمل، أو تغلبني عيني، فأنام، فقال يومًا: يا ربيعة سلني فأعطيك، فقلت أنظرني حتى أنظر.. وتذكرت أن الدنيا فانية فقلت: يا رسول الله، أسألك أن تدعو الله أن ينجيني من النار ويدخلني الجنة، وفي رواية أسألك مرافقتك في الجنة.. فسكت رسول الله ﷺ ثم قال: من أمرك بهذا؟ قلت: ما أمرني به أحد، ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية، وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه فأحببت أن تدعو الله لي، قال: إني فاعل، فأعني على نفسك بكثرة السجود»[1].

لقد كان رسول الله لا يفتر من ذكر حتى يمل كعب أو ينام، فلما طلب من رسول الله أن يصحبه في الجنة طلب منه أن يرشح نفسه لهذه المنزلة بإدامة الصلاة.

والإنسان الذي يكثر السجود يقبل على الله بنفس محب، ورغبة مشتاق، والاعتكاف على مثله يسير، طال أو قصر.

والاعتكاف اليسير أو الطويل ليس جلوس بطالة في المسجد كما يتوهم البعض! فإنك إذا قلت: شاطئ البحر متعة عنيت أن ذلك لمصطاف يستعين بالراحة على العمل، وبالاستجمام على استئناف الكفاح.

والمرء في مكابدته للمعايش، ومخالطته للخلائق قد يتيه في أودية الحياة، وينسى ما بعدها، فإذا انتزع نفسه ليذهب إلى المسجد مصليًا، فهو يذهب ليستعيد صوابه. فإذا بكر في الذهاب قليلًا، وقصد أن يفتح أقطار قلبه لإيحاء المسجد فهذا اعتكاف مشكور، وفي الحديث: «فإذا صلى لم تزل

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٢٦).

الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة».

إننا في عصر ينشد الإنسان فيه المتاع المادي من ألف وجه، ويظن ما ناله منه حظًا جسيمًا، فلنلو زمامه إلى لون آخر من الكمال الإنساني الأسمى..

إن غدوة إلى ناد للقاء الزملاء متعة.. لا بأس!

ومن المتع التي لها مذاق آخر غدوة إلى المسجد لمناجاة الله، واللبث في حضرته.

فإذا استمكنت هذه العادة في القلب رفعت صاحبها إلى السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله.. فمن هؤلاء السبعة «رجل قلبه معلق بالمساجد»..

إن الاعتكاف سنة مهجورة، أو لعله سنة غير مفهومة، خصوصًا هذه الأيام التي دارت فيها الأهواء بالرؤوس كما تدور الخمر بشاربها.. وهو في حقيقته واحات روحية مزهرة على درب الحياة الطويل.